العـــــــالم

كيف خلق وكيف تطور ؟

بحث في تطور الفكر البشري

للأستاذ محمد مظهر سعيد

أستاذ التربية وعلم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

تاريخ الانسان حافل : بالمشكلات العقلية ، والقضايا الفكرية المعقدة ، التي لا نغالى إن قلنا : إنها ولدت ودرجت معه ، وتطورت بتطوره ، وكانت له في كل أدواره التي مر عليها من همجية وتمدين ، وتقدم وانحطاط : ظله الذي يلازمه ، وشغله الشاغل ؛ ولكنه مع هذا كله ، لم يستطع فيما مضى ـ ولن يستطيع فيما سيأتي ـ أن يسبر لها غوراً ، أو يعرف لها حقيقة ، مادام إنساناً له عقله المحدود وتفكيره الآدمي . ولا تقف خطورة هذه المعضلات عند حد بقائها أسراراً وطلاسم خفية ؛ ولكنها أصبحت الآن موضع نزاع بين العلم والدين من جهة، والدين والأساطير من جهة أخرى ، وهدفاً يصيبه كل منهما من ناحية : فلا يلتقيان .

وستتسع الهوة وتبعد شقة الخلاف: كلما ازداد الانسان تقدماً في العلوم المادية ؛ ولا جدال في أن الموضوع الذي نتناوله اليوم بالبحث ، هو أهم هذه الموضوعات خطورة ، وأصلحها جميعها للدلالة على صحة رأينا هذا ؛ فقد لجأ الانسان في حل معضلاته بادىء ذي بدء ، إلى الأساطير والقصص الخرافية ، التي لا تستند إلى أي أساس علمي، أو منطق معقول ـ على الأقل ـ فلا تصلح لأن تكون أداة صالحة للوصول إلى الحقائق الكونية .

ثم احتمى بالقصص المجازية التي ذكرتها الكتب السماوية عن خلق العالم ، وتكوينه بأسلوب بسيط يتفق وعقول العامة ، الذين تنزلت في عهدهم هذه الكتب، لاشباع ما فيهم من نزعة للمعرفة والسؤال عن المجهول، ولم يكلف نفسه مؤونة الغوص وراء ماتنطوى عليه هذه القصص من حقائق ، وحكم معنوية ، لا تدركها عقول العامة ؛ وغاب عنه المعنى في سبيل تمسكه باللفظ .

وظل الانسان قروناً طويلة يؤمن بصحة هذه الآراء الدينية وغيرها ؛ من قصص الطوفان، وعمر الدنيا والمعجزات ، عن عقيدة ، لا عن اقتناع ؛ حتى ظهر القرن العشرون بنزعته العلمية المادية البحتة ، المتحررة من نير الأساطير والدين ، وحتى الفلسفية الجدلية القديمة ؛ وأصبح

كله مجموعة حقائق، تبنى على حقائق، ليس للظن أو التخمين مجال فيها، ولا يقام لرأى وزن، إلا إذا قام الدليل على صحته، وإن ثبت التجارب العملية. واستطاع العلماء بفضل أجهزتهم وآلاتهم الدقيقة وطرقهم المضبوطة في البحث، كشف القناع عن الكثير من أسرار الطبيعة التي تتصل بموضوع خلق العالم؛ ولم يبق هناك مفر من قبول هذه النتائج، ولو في شيء من التحفظ، من ناحية العلم، وشيء كثير من المرونة في التفسير من ناحية الدين.

ولكن هذا العلم الذي نتغنى به، ونعده مفخرة القرن العشرين، لم يزل بمدفتيا، قاصراً عن حل رموز الطبيعة، وكشف أسرار العالم المعقدة؛ أليس غريباً أن يتوصل الانسان بالعلم الحديث إلى كشف الكهرباء وتسخيرها لخدمته، دون أن يفهم ما هي الكهرباء؟ ويستعين بالحرارة على توليد البخار، فيسيره كيف يشاء، دون أن يفهم ماهي الحرارة؟ هذا المخلوق العظيم بعلمه، الحقير لجهله، المسيطر على العالم، المتسلط على مفاتيح العلم، المتصرف في كنوز الحكمة، يقف حائراً لايدرى أمام مظاهر الحياة، وعجائب الكون، ولطالما ذهب في تفسيرها، منذ القدم مذاهب شتى؛ فتارة كان يصيب، وطوراً كان يخطىء بقدر نصيبه من العلم والتفكير الصحيح، وقد خلق محباً للاستطلاع، كثير الاستفهام، يسائل نفسه عن حقيقة ماحوله، ويطلب من الطبيعة، أو من نفسه ـ الجواب عن كل مايعرفه وما لا يعرفه، ميالا للبحث والتعليل، فاذا أعياه الأمر، حار وارتبك، وسلك إحدى سبيلين: إما الاقتناع بالعجز والسكوت، وهذا شأنه في العقائد الدينية المنزلة، أو الطقوس التي يفرضها عليه رؤساء أو زعماء أرقى منه عقلا، وأكثر قوة، فيؤمن بها، ويسلم بصحتها، ويقتنع بحكمتها من غير تفكير أو مناقشة؛ وإما المكابرة والتضليل، والاستعانة بالمنطق الفاسد والخيال المعقد، على إقامة مايظنه دليلا معقولا يقتنع هو به، ثم يطلب إلى الناس أن يقتنعوا به معه، فهو كابنه الطفل يمطرك الألوف من الأسئلة، ويطلب اليك الاجابة عنها في وقت واحد، كأنها جميعها ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً، ويقبل منك أي جواب تلقيه عليه، إن تعقله اعتقد في صحته، ونقله إلى سواه من الصبية، في لهجة الواثق العارف بدخائل الأمور، وإن تعذر عليه الفهم تركك وشأنك والتمس لنفسه بنفسه حلا يناسب عقليته، ثم يملؤه الغرور، فيظن أنه فاتك علماً وأنت الرجل العالم المجرب! وقد يخرج عليك ويرميك بالجهل، وهذا شأنه في الأساطير والخرافات، التي صورها له خياله، وابتكرها عقله، لتكون حلا مؤقتاً لمشكلة علمية شغلت باله، ثم نقلها إلى أولاده، وهؤلاء إلى أحفاده من بعده، حتى أصبحت عقائد وقوانين وطقوساً يمارسها الناس. من غير أن يفهموا لها معنى. ويعاقبون من يخرج عليها، وينبئهم إلى فسادها بأشد أنواع الأذى — وهل الانسان على حداثة عهده في الوجود إلا كالطفل أمام الطبيعة الهرمة لن يتسنى له فهمها حق الفهم؟ ولكن على كل حال: كلما عمر في الارض كلما قرب

رأيه من الصواب ، وبلغ علمه شيئاً من شبه الكمال ، وهناك طريق ثالث يتبعه بعض الذين كشف الله الحجاب عنهم من العلماء والفلاسفة ، يعرفون شيئاً من حقيقة الوجود، فيستبقون الجوهر لأنفسهم ، ويظهرون أعراضه للناس مستورة في رداء كثيف : من الطلاسم ، والرموز ، والأساطير ، فيستهويهم ما فيها من خيال رائع ، وقصص أخاذة ـ وذلك شأن الانسان الأول الذى نشأ في فجر التاريخ في مصر وبابل وغيرها : في الأساطير التى لقنها له كهنته ورؤساء دينه عن الآلهة والعالم وسر الخلق والوجود .

هكذا وقف الانسان أمام سر خلق العالم ونشأته وتطوره حائراً لا يدري ، وهكذا تدرج فكره ، وتطورت عقيدته ، من خرافات نسجها عقله الأولى البسيط ، إلى أساطير ، وضعها له الكهنة ، إلى قصص مجازية ذكرتها الكتب المقدسة ، بأسلوب يتفق وعقلية الناس ، وقت نزول هذه الكتب ، حتى وصل أخيراً إلى ربوة العلم يشرف منها على آخر ما أوصله إليه من بحوث ونتائج لا يسعه إلا التسليم بصحتها ، ولو خالفت ما عرفه من قبل .

نشأ والطبيعة تحوطه بمظاهرها المتغيرة من كل جانب : فكان أول ما استرعى نظره ، وشغل فكره : السماء ، والأرض ، وما فيها من شمس تشرق عليه ، فيقوم لمعاشه ، وتشتد حرارتها ظهراً ، فيلجأ إلى ظلها ، مستفيئاً من حرها ، ثم يتلطف الجو عصراً ، فيعود لأمره ، ثم تغرب ، فيؤوب إلى مربعه ، ويقبع طول ليله ، وتحيط به الظلمة ، فيخشع ، حتى إذا ظهر القمر ، ابتهج لرؤيته ، وقام يستنير به في دياجير الحلك . وهكذا يتدرج بين حر وبرد ، ونور وظلام ، وليل ونهار ، مصدرها الشمس والقمر . وفي لحظة أخرى يتجهم له وجه الطبيعة ، وتكشر له عن أنيابها ، فتسود السماء وتزمجر ، وتصليه صواعق من نار وشهب ، تحرق له أرضه ، وتقتل له مواشيه ، وتمزق الجبال فوق رأسه ، فيسمع لها رعداً متواصلا يصم أذنيه ، وتفتح له أفواهها فتمطره سيولا جارفة ، يحاول منها الفرار ولا مفر ، فيتملكه الخوف والذعر ، وينذر في سره النذور والقرابين لهذه القوى التى غضبت عليه : إن هي كفته شر هذا البلاء . ولطالما وقف بعد هذا كله يناجي الطبيعة في خضوع وخشوع ، يسائلها عن حقيقة ما حوله تارة ، فلا تجيبه ، ويسأل نفسه طوراً فيزداد ارتباكاً ، ويحاول أن يتلمس في أركان عقله المظلم بصيصاً من النور ، يهتدي به فلم يفلح وأعياه الأمر ، وامتلأ قلبه خشوعاً ورهبة ، وانتهى به إلى تأليه هذه القوى وعبادتها ، وهكذا نشأ الانسان الأول يعبد : الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والمطر ، والنور ، وغيرها من آلهة الخير ، والرعد والبرق ، والنار والظلام وغيرها من آلهة الشر ، وقدم القرابين والذبائح استدراراً لخير الأولى ، واتقاء لغضب الثانية . ثم تدرج من هذا إلى عبادة الحيوان ، ثم آبائه وأجداده وملوكه وحكامه ، ثم تماثيله وأصنامه ، وأخيراً اهتدى إلى عبادة الواحد القهار ، وهو بين هذا وذاك منصرف إلى أمور معاشه ومعاده ، من : أرض يزرعها ، إلى

زرع يحصده، إلى كوخ يبنيه ، إلى عدو يقهره ، وحيوان يسخره ، يسير سيراً حثيثاً نحو بوادر التفكير وفجر المدنية ، فإذا خلا لنفسه ، سولت له أن يفكر فى حقيقة آلهته هذه وفى ماهيتها ومكانها ، وعن حقيقة الوجود ، وكيف خلق العالم : وكيف وجد من العدم : وإلى أين مصيره ؟ — أسئلة معضلة لاجواب لها ؛ ولكنه لن يعجز عن تلمس حل يرضيه ويقنعه ؛ فلينظر إلى الطير كيف يجتمع الذكر بالأنثى فتبيض وتحتضن بيضها ، ثم تنقره فى الوقت المناسب، فتخرج منها صغارها كاملة النمو، فيها كل عناصر الحياة ، وليتمثل خلق العالم كله على هذا النحو ، بعد أن يغذيه بشيء من الخيال ، ويهول فيه ، ويخرج للناس أسطورة جميلة رائعة تجدها عامة عند الأمم المنقرضة التى عاشت فى فجر التاريخ : وإلى اليوم عند الهنود الحمر ، وسكان أستراليا، وبورنيو، وغيرهم من القبائل التى ظلت على الفطرة .

فهنود الاسكا يمثلون الخالق كغراب ممسك بقناع على هيئة وجه إنسان يلقحه وينفخ فيه الحياة: فيصير إنساناً كاملا : وهناك نموذج لهذا محفوظ فى متحف (جامعة بنسلفانيا) ؛ ولهنود الشمال الغربى لأمريكا أساطير غريبة، عن مخلوق مضحك ،فى هيئة البازى أو الغراب الأسود : يقولون عنه إنه سرق الشمس والقمر والكواكب من صندوقها ونثرها فى السماء لتضيء الأرض ، وأخذ جزءاً من الطين لقحه بلقاحه ، فاستحال إلى بيضة خرجت منها كل الكائنات الحية ، ويقول أهل الجزائر الاسترالية — وهم أغنى أهل الأرض جميعاً بمجموعة أساطيرهم — : إن الاله الأعظم، كان فى الأصل طائراً عظيم الحجم يحلق فوق الماء، وهناك وضع بيضة تولد من قشرها السماء والأرض ، وإنه لايزال يعيش إلى الآن فى قوقعة أو بيضة يكسرها من آن لآخر ، فتنشأ الجزائر الاسترالية من قشرها ، وبذلك يزداد العالم عاماً بعد عام ولا ينقرض .

ولأهل اليابان كذلك أسطورة قديمة يمثلونها فى إحدى هياكلهم (ببلدة مياكو) بثور من الذهب الخالص بين مقدمتيه بيضة من الذهب والأحجار الكريمة، تدفعها الأمواج إليه ، فيبقرها بقرنيه ، فتخرج منها كل عناصر الحياة، ثم ينفخ فيها فيخرج منها الانسان .

فأنت ترى من هذه الأمثلة القليلة أن أساطير الانسان الأول على ما فيها من خيال غريب، ووصف رائع ،على غاية من البساطة ، كالنوع الذى يخلقه خيال الأطفال ؛ وأظهر ما فى هذه الأساطير ، استنتاج فكرة خلق العالم من عملية التلقيح والتوالد المادى ؛ فيكون الخالق أو وسيط الخالق طيراً أو حيواناً آخر غير مألوف ، له قوى خارقة للعادة ! يستطيع بمقتضاها أن يخلق العالم من بيضة الوجود الأزلية ، وقد يتطور هذا الحيوان بأن يصير إلهاً ، أو يحل فيه إله كامل بالفعل ، وعندها فقط يستطيع خلق الانسان .

بزغت شمس المدنية الأولية فى مصر وبابل وغيرها من الأمم المعاصرة ، وقطع الانسان شوطاً — ليس بالقصير — فى التفكير المعقول ، أوصله إلى معرفة الآلهة : ثم الاله الواحد

الأحد ، وفلسفة الوجود والعدم ، وطبيعة الخير والشر ، وغير هذا من النقط الفلسفية ، التى لم يكن فى مقدور الانسان الاول أن يتناولها بالبحث ، فكان طبيعيا أن تتطور فكرته عن خلق العالم ونشأته تبعا لهذا التطور العام . ولذلك تجد أن كهنة الديانات القديمة فى مصر وبابل وغيرها ، قد تناولوا الأساطير القديمة بيد المسخ والتعديل ، فأضافوا إليها الكثير من أسماء الآلهة التى تمثل المظاهر المتعددة للاله الواحد ، وصورا رمزية ، وعبارات مجازية ، تتضمن الكثير من حقيقة الوجود ، ولكن بأسلوب يخفيها عن أنظار العامة ، وهى تتلخص فيما يلى :

١ — استبدال فكرة اتصال الذكر بالأنثى بالظلام والنور أو العدم والوجود ، وغير ذلك من المظاهر المتعددة التى يجمعها مذهب الازدواج أو المذهب الثنائى (ديوالزم) .

٢ — تأليه العدم أو الفوضى أو الظلام ، على اعتبار أنه أصل الوجود ، أو ما وجد قبل الوجود .

٣ — تأليه الماء والنور ، على اعتبار أنها أول ما استخدم من الوسائل لخلق العالم المادى .

٤ — إعلاء الخالق من مرتبة الحيوانية إلى الألوهية ، فيكون إله الآلهة خلق الجوهر الأزلى للوجود ، وتليه آلهة أخرى ثانوية تتم عملية الخلق ، أو تنوب عنه فى الأشراف على العمل ، وبعبارة أخرى يخلق كبير الآلهة العالم إجمالا ثم يترك التفاصيل لغيره .

٥ — خلق العالم على أدوار متعاقبة : يرتاح الخالق بعد كل دور منها مدة تناسب صعوبة العمل الذى قام به فى الدور السابق .

وهناك تعديلات أخرى ثانوية : منها تمثيل العالم بالانسان أو العكس ، واعتبار أن السماء كانت فى الأصل ماء .

ولكن هناك صعوبتين لم تستطع عقول واضعى الأساطير أن تتغلب عليهما ، وهما : خلق المادة من لا شىء ، والكيفية التى خلق بها العالم ، أعنى مادية كما يفعل الانسان فى كل شىء يصنعه ، أم هى مجردة فيكفى أن يقول الاله للشىء كن فيكون ؟ ذلك لأن العقل البشرى فى ذلك الدور من تطوره ، لم يكن ليستطيع تصور خلق شىء من لا شىء ، ولا فهم صورة الاله مجردة من ثوب المادة والحس ، فكان لزاما عليه أن يحتفظ بجوهر الأساطير التى وضعها من سبقه من البربر والمتوحشين الذين عاشوا فى فجر التاريخ ، ولذلك تجد لبيضة الوجود مقاما كبيرا فى كل الأساطير المتأخرة .

ولا أدل على هذا التطور فى الفكرة من أنك تجد للهنود الحمر أساطير متأخرة أرقى من التى ذكرناها سابقا بكثير .

فقبائل الايروكويس يقولون كما كان يقول أهل مصر وأشور وبابل : فى الأصل كانت السماء فوق الماء كالجزيرة ، وكانت الجنة على الأرض ، فبينا الآلهة (آتاتسيك) تتريض فيها ،

سقطت من السماء — وهى حامل — فوقعت على ظهر سلحفاة هائلة الحجم : مغطاة بالطين (وهى التى تحمل السموات والأرضين) وهناك مكثت حتى ولدت بنتا ، وهذه بدورها ولدت توأمين : (ولا ندرى كيف ولدتهما) أحدهما كان شريرا فقتل أمه وخلق الأرض والنباتات ليعيث فيها فساداً ، فلم يكن من الثانى إلا أن خلق السماء ليهرب إليها ، والحيوان والانسان انتقاما من أخيه ، (وأنت ترى هنا وجه الشبه بين هذه القصة، وبين قصة هابيل وقابيل، كما هى مذكورة فى التوراة) . هذه هى قصة العامة.

أما الكهنة فلهم رموز خفية يفسرون بها كل أساطيرهم تفسيرا معنويا، فهم يسمون الأم (ذات الجلد الأسمر) أى الأرض، والابن الأول الثلج ، أى كل ما يتلف الأرض ويقتلها ، والثانى البذرة الصالحة التى هى أصل كل الكائنات، ويحتفظون كذلك بآلهة أخرى لا يخرجونها للعامة: منها : (باشا كامو) إله النيران الكامنة فى باطن الارض ، و (فيرا كوشا) الذى خلق الماء ، والاله الرجل القادر (مونيو) وأخته زوجه (موما) بيضة العالم ، التى تحولت بعد أن لقحها الرجل إلى الشمس والقمر .

ولهم أسطوره أخرى قديمة تقول بأن ابن الخالق الكر (كذا) رأى عالم السموات والنجوم الذى خلقه أبوه جميلا ، فأكل الحسد قلبه ، فأقسم أن يفسد كل ما صنعه أبوه ، فغضب عليه أبوه وطرده من السماء ، فذهب إلى الارض ، وهناك خلق لنفسه حيوانات وآدميين وبحارا وجزائر يعيث فيها فسادا كما يشاء ، (مما يماثل قصة إبليس وطرد آدم من الجنة)

وكذلك لسكان استراليا أساطير جميلة غير التى ذكرناها سابقا ، يؤلهون فيها بو (الظلام) إله الآلهة الذى خرجت منه كل الاشياء ، الواحد الذى ليس له شريك !

ويقول الماورى (١) إنه عند بدء خلق العالم، كانت الارض والسماء قطعة واحدة ، فتمزقت السماء وانفصلت عن (بابا) الارض، كما كان يقول أهل مصر وبابل ، ومن ذلك نشأ (تونجالو) إله البحر والاسماك والزحافات.

وسنتكلم فى العدد المقبل عن معتقدات مصر وبابل والمدنيات القديمة إن شاء الله ؟

محمد مظهر سعيد

---

(١) قبائل من أهل بولينيزيا .